فنانو المهجر وتأثيرهم الإيجابي في نشر الهوية والثقافة اليمنية

أ. فؤاد علي الشرجبي (*)

(*) موسيقي وباحث ـ البيت اليمني للموسيقى والفنون.

يعيش المواطن اليمني مُنْذُ القدم مراحل حياتية صعبة في جميع النواحي الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، وهذا يؤثر بشكل سلبي على جميع المواطنين، ويتضاعف هذا التأثير أكثر عند العاملين في المجالات الثقافية، وأكثر بكثير عند العاملين في المجالات الفنية، وفي مجال الغناء بالتحديد، نتيجةً للنظرة الدونية من قبل بعض شرائح المجتمع اليمني لممارسي مهنة الغناء والعزف على الآلات الموسيقية والإيقاعية وغيرها من الأدوات.

ولذلك لا عجب في تأثيره في هجرة كثير من الأصوات الغنائية اليمنية، إما بشكل إجباري واضطراري، أو بشكل طوعي لغرض تحسين المعيشة والظهور والانتشار في إطار أوسع، حيث توالت الهجرات الفنية مُنْذُ بدايات القرن العشرين في ثلاث وجهات:

١- دول الجوار في الخليج العربي، بالذات المملكة العربية السعودية، ودولة الكويت، ودولة الإمارات العربية المتحدة.

٢- دول شرق إفريقيا مثل جيبوتي، والصومال، والحبشة، وتنزانيا، ومنها تم التأثير على بقية الدول الإفريقية التي هاجر إليها اليمنيون.

٣- دول شرق آسيا مثل إندونيسيا، وماليزيا، وسنغافورة، وكذلك الهند (حيدر آباد) وغيرها.

وهناك نوعان من الهجرة الفنية:

- هجرة فنية استوطنت بلاد المهجر، وتجنس الفنان بجنسية الدولة التي هاجر إليها.
- هجرة فنية استقر فيها الفنان في الدولة التي هاجر إليها دون أن يحمل جنسية هذه الدولة.

لكن الأهم في كل هذه الهجرات، أن الفنان اليمني استطاع أن يؤثر بشكل واضح في هذه المجتمعات الجديدة عليه، وأن ينشر الغناء اليمني بكل أشكاله وإيقاعاته ورقصاته، وأن يؤثر بشكل جلي وواضح على الذائقة الفنية الجمعية في هذه الدول. ويستمر هذا التأثير عشرات السنين حتى أصبحت هذه الأغاني جزءاً من ثقافة وفنون تلك البلدان.

فعلى سبيل المثال، في العام ١٩٠٦م، ومع بداية أولى التسجيلات بالحاكي (الجراموفون) في الجزيرة العربية التي سعى إليها سنوك هوروخرونيه، وهو مسؤول رفيع في الدبلوماسية الهولندية عبر البحار، وكانت مهمته تنحصر في رصد واستشراف اتجاهات الفكر للشعوب، وقام بعمل تسجيلات كثيرة ومتنوعة عبر ترتيب يشرف عليه السيّد محمد سعيد تاج الدين، أحد أقطاب نقل حجاج جنوب شرق آسيا بالسفن البخارية، مع القنصلية الهولندية في جدة، وعبر مندوبه وشقيقه في الحجاز السيّد جمال الدين آل تاج الدين، وسُجل على تلك الإسطوانات قدراً هائلاً من كل ما يمكن أن يخطر على البال مما يخص الموروث الحجازي، بين عامي ١٩٠٦ و١٩٠٩م: قصار السور من القرآن الكريم - أذان الحرم المكي - ابتهالات دينية - موشحات - مديح نبوي – غناء - تراث محكي.

لذا تم استجلاب أهم الأصوات الجميلة والمتمكنة من اليمن، ومن أهم الأصوات التي سجّلت الأذان المكّي، المقرئ والمدّاح اليماني الشهير جابر أحمد رزق، من أهل صنعاء أصلاً، الذي انتقل إلى الحديدة هارباً من مضايقات هددت استقراره وحياته قبل أن ينتهي به المطاف في الحجاز.

وبعدها مكث هناك ليسجل أول حالة هجرة فنية إلى الجزيرة العربية، في العام ١٩٠٦م، واستمر التسجيل على الاسطوانات الشمعية في مشروع سنوك طيلة ثلاثة أعوام، من ١٩٠٦- ١٩٠٩م.

كما قام المنشد والمغني اليمني الشهير حينها السيّد الماس محمد هاشم، المشهور بمظهره (بعمامة العلماء والمنشدين) ، وكانت آلة القنبوس (العود اليمني القديم - الطربي) ترافقه في جميع أغانيه.

وفي وثيقة لمحمد سعيد تاج الدين أرسلت لأخيه في منتصف عملية التسجيل عام ١٩٠٧م، نجده يحدد له ما تم توثيقه من التسجيلات، ومن هذه الوثيقة نخلص إلى أن أول التسجيلات اليمانية التي جرى تسجيلها في مكة عام ١٩٠٦م كانت على النحو الآتي:

أذان، وقراءات من القرآن الكريم، وابتهالات دينية، وتواشيح إسلامية، وكذلك مجموعة من الأغاني المشهورة آنذاك مثل:

-حوري على رضوان.

- أراك طروباً.
- في حط لك يا منى قلبي على الخد شامة.
- ما القميري ترنّم في الظلام.
- ما حركت سكنات الأعين النجل.
- تردّوا على طرفي النوم الذي سُلبا.
- ليذهب في ملامي كيف ما ذهبوا.
- حذاري سيوف الهند.
- بات ساجي الطرف.
- أسعد الله مساك.

- نالت على يدها.
- صادت فؤادي بالعيون الملاح.
- سبت بذاك المحيا طلعت البدر.
- إذا عقد اللثام بداها لالا.
- يا رب سألتك بسورتي حاء وميم.
- ما بين معترك الأحداق والمهج.
- قال الشجي الهايم اسمع يا فهيم.
- يا بروحي من الغيد هيفا كالهلال.
- قال المعنّى بدت قمري.
- يا ساري الليل قم وانظر حروف العشّاق.
- يا الله يا عالم الضمايير.
- جرحت قلبي بلحظ منك فتّاك.
- رهيني الهوى يشكي من يودّه.
- يا اهل الهوى اليوم خلّي أطال.

• أما في الاتجاه الآخر من اليمن فقد كان لأبناء حضرموت النصيب الأكبر في الهجرة والتوسع بالانتشار لأغراض تجارية في المقام الأول، أو لتحسين المعيشة والحصول على فرص أفضل في العيش، وقد نقلوا معهم ثقافتهم وفنونهم وأخلاقهم السامية التي جعلت الكثيرين يتأثرون بهم.

لذلك، نرى، وبشكل جلي، تأثيرات الثقافة والفنون الحضرمية في شرق آسيا، حيث حافظت الجاليات الحضرمية على ثقافتها اليمنية والإسلامية، واختلطت بالمجتمعات الآسيوية وأثرت فيها، لتنتشر من خلال هذا الحراك الفني الكثير من الإيقاعات والألوان الغنائية، سواء الغناء الصوفي، أو الغناء

الحكمي، أو الطربي، وكذلك الرقصات الشعبية الحضرمية مصحوبة بجميع أزيائها وأدواتها وطقوسها الفريدة والمميزة. وكما هو معروف عن أبناء حضرموت بأنهم جميهم يتمتعون برحابة الصدر في تقبلهم للغناء، فنجدهم إلى جانب معرفتهم العميقة بأمور دينهم وتفقههم بذلك، يفسحون كثيراً للمشاركة في الغناء، وعزف الإيقاع والتصفيق الجماعي الموحد، لذا تجدهم في الأفراح كأنهم جوقة واحدة.

كما لا ننسى أن أشهر المطربين والمغنين الحضارمة بدؤوا بالغناء الصوفي على يد الحبايب في تريم، وأولهم الفنان اليمني والعربي الكبير أبوبكر سالم، الذي تجاوزت أغانيه العالم العربي، ليصبح أشهر الفنانين اليمنيين المهاجرين، وقد حافظ طوال سنين حياته على الأغنية الحضرمية بشكل خاص، والأغنية اليمنية بشكل عام.

وفي النصف الثاني من القرن العشرين انتقل الفنان اليمني أبوبكر سالم إلى جدة، ثم إلى بيروت، سعياً منه لنشر أغانيه على مستوى الوطن العربي. وبسبب حرب لبنان عاد إلى المملكة العربية السعودية وحصل على الجنسية السعودية، لتستمر إقامته هناك ويذيع صيته الفني في كل أرجاء الجزيرة العربية والوطن العربي. تلاه الفنان الكبير الدكتور عبد الرب إدريس الذي لحن للكثير من مشاهير الغناء الخليجيين والعرب، وعمت شهرة أغانيه جميع أرجاء الوطن العربي. ثم هود العيدروس، وعلي الصقير، وعلي العطاس، وغيرهم من الفنانين الذين استقر بهم المقام في المملكة العربية السعودية.

وفي الكويت، انتقل الكثير من الغناء اليمني عبر البحَّارة، ويعد المطرب عبدالله فضالة أول من ردد الغناء اليمنى في الكويت، وبعده قام العديد من المطربين الكويتيين بتداول الغناء اليمني، وكان حمد خليفة هو أول من غنى

الغناء اليمنى المعروف حالياً "بالعدني" في الكويت، وقد أخذه أصلاً من عمر محفوظ غابه (يمني)، وبعدهم الكثير والكثير.

وفي الإمارات، نجد الفنان (علي بن محمد) من غيل باوزير، قد حصل على الجنسية الإماراتية، وقبله الفنان (عبد المنعم العامري). وقد تميز الفنان علي بن محمد بأنه لايزال محافظاً في طابع أغانيه على الشكل والمضمون الحضرمي وغيره من ألوان الغناء.

كما نجد عدداً من الفنانين اليمنيين في الداخل قد قاموا برحلات فنية متواصلة إلى جميع الدول العربية، منهم:

- الفنان الكبير أحمد بن أحمد قاسم، وله تسجيلات لحفلات كثيرة في دولة الإمارات العربية المتحدة.
- الفنان محمد مرشد ناجي، وله تسجيلات لحفلات كثيرة في الكويت، وأشهرها "على امسيري".
- الفنان محمد سعد عبد الله، له الكثير من التسجيلات لحفلات في المملكة العربية السعودية.
- الفنان أيوب طارش عبسي، له الكثير من التسجيلات لحفلات في سلطنة عمان والسعودية.
- الفنان فيصل علوي، له الكثير من التسجيلات لحفلات في البحرين والسعودية.
- الفنان عبد الرحمن الحداد، له الكثير من التسجيلات لحفلات في المملكة العربية السعودية.
- الفنان أحمد يوسف الزبيدي، له الكثير من التسجيلات لحفلات في المملكة العربية السعودية.

- الفنان كرامة مرسال، له الكثير من التسجيلات لحفلات في الكويت والسعودية.

كما أن الفنان والموسيقار أحمد فتحي يشكل حالة استثنائية بين فناني المهجر. وكما نعرف جميعاً أنه غادر الوطن اضطرارياً، ولكنه حافظ على هويته الفنية اليمنية وعلى لهجته، مع أن زوجته وأولاده يحملون الجنسية الإماراتية، وكان يمكنه بسهولة الحصول على أيٍّ من الجنسيات الخليجية، إلا أنه أصر إلا أن يكون سفير اليمن فنياً في كل المحافل الدولية، فله فعاليات موسيقية شهيرة في أوروبا، مع أشهر الفرق السيمفونية كموسيقار يمني يمثل بلده بمجهوده الشخصي دون أي دعم من حكومات بلده.

• أما في الجانب الإفريقي:

فنجد الفنان اليمني الكبير عبد القادر بامخرمة، الذي ولد في جيبوتي بعد أن هاجر والده إليها، وهو بعد أحد عمالقة جيل الرواد، مثله مثل العنتري، والقعطبي، والجراش، والماس، وباشراحيل. وغيرهم. وفي رأيي وحسب ذوقي الخاص، فإن بامخرمة هو أكثرهم تميزاً في العزف والصوت وطريقة الأداء وحسن الاختيار، وقد حقق فنه شهرة واسعة داخل اليمن وفي جيبوتي، وخدم الأغنية اليمنية ونشرها بين السكان الأصليين، وجعلهم يتذوقون الغناء اليمني كما يتذوقون غناءهم المحلي. وقد التقيت في فترة سابقة مع أحد أبنائه، وهو الفنان التشكيلي الكبير ووزير الثقافة الأسبق لطفي عبدالقادر بامخرمة، وفي أثناء زيارته لنا في "البيت اليمني للموسيقى والفنون" أهدانا مجموعة كبيرة من الأغاني اليمنية بصوت والده، كان قد سجلها لنفسه أو في استوديوهات إذاعة جيبوتي. كما ظهر في الصومال الفنان علي سعيد الخنبشي، وهو من مواليد مقديشو عام ١٩٤٢م، وكانت آنذاك عاصمة للصومال الإيطالي، ونشأ الخنبشي

وترعرع فيها مع أقرانه من أبناء الجالية العربية عامة والحضرمية خاصة، وضمن الأسر الحضرمية التي عاشت في الصومال.

بدأ كعازف ناي، وتأثر كثيراً بالغناء الهندي، مثله مثل الفنانين الذين تأثروا بالفن الهندي، كمحمد جمعة خان، وأحمد عبيد قعطبي، ولكنهم صاغوا هذه الألحان بكلمات عربية وغناء يحمل الهوية اليمنية، وحقق شهرة كبيرة، وسجلت له العديد من الأغاني في العديد من الإذاعات الأفريقية.

• الأغنية اليمنية على لسان اليهود اليمنيين الذين هاجروا من اليمن في منتصف القرن العشرين، حيث نلاحظ أن الجاليات اليمنية المقيمة في أرض الاحتلال أو في أمريكا تحافظ على هويتها الثقافية اليمنية، كما يعملون جاهدين على نشر الأغنية اليمنية بجميع تفاصيلها وخصوصيتها الإيقاعية والمقامية.

كما أن هناك جمعية فنية من الجالية اليهودية تعنى وتتابع وتراقب كل الإنتاجات الفنية، وتحرص بشدة على الحفاظ على كل تفاصيل الهوية اليمنية، من حيث الغناء، والعزف، والملابس، والإكسسوارات اليمنية القديمة. وقد اشتهرت الفنانة عفراء هزاع بأغانٍ يمنية، وحصلت على أعلى جوائز الغناء العالمي.

وهناك الكثير والكثير من فناني المهجر لم تستوعبهم هذه الورقة المختصرة، ولعلنا في بحث قادم نثري هذا الموضوع بالمزيد من البحث والسفر والمتابعة والاطلاع.